السّلوك الحضاري
مع الآخر في الإسلام

د.منجية السوايحي
أستاذة بالمعهد الأعلى لأصول الدّين

مقدّمة:

إنّ السّلوك الحضاري مع الآخر من أدبيّات العلاقات الإنسانيّة، الّتي يبحث عنها الإنسان، وأصبحت الدّعوة إلى التزام هذا السّلوك قاسما مشتركا بين الملتزمين بالسّلم، وموضوعا يُطرح في أكثر النّدوات والمؤتمرات العالميّة.

وجاءت ندوتنا هذه لتطرح أسئلة عدّة عن الحوار مع الآخر،والتأسيس للتّقارب بين أصحاب الأديان، والبحث عن طرق التّحاور، وسط عولمة العالم الّتي تشكّل تحدّيا لهويّات الجماعات بسبب التقدّم التّكنولوجي الّذي قلّص المسافات، وأتاح للشّعوب والثّقافات التّواصل، ولكنّ هذا التّواصل هدّد الخصوصيّات والمعتقدات المميّزة للشّعوب وخاصّة الفقيرة منها، وكذلك الأقلّيات الّتي وجدت نفسها أمام نظام دولي لا يعترف

بالخصوصيّات، ويرمي إلى التّنميط، إضافة إلى ما يقدّمه هذا النّظام الدّولي من رفاه اقتصاديّ واجتماعيّ وثقافيّ لدول الشّمال على حساب دول الجنوب إلى جانب تغيير مفهوم الأسرة التّقليديّ، ورفض أنماط الحياة التّقليديّة أو مصادرتها.

ومعلوم أنّه كلّما شعرت المجتمعات بأنّها تواجه التّهميش أو الذّوبان، أو الاستئصال إلاّ وتحفّزت لردّ الفعل للتمسّك بهويّتها، والحثّ على تأكيدها في الشّكل والمضمون، وقد يصل الأمر إلى مهاجمة الهويّات والثّقافات الأخرى.

وسط هذه العولمة، وما أصبحت تعيشه الإنسانيّة من صدام مفزع هل يمكن أن نضيء شمعة للسّلام وللتّعايش بين الأديان التّوحيدية الثلاثة وبين الإنسانيّة كلّها.

من هذا المنطلق يطرح هذا البحث المحاور التّالية :

I) الجانب النّظري وفيه:

1) الاختلاف حقيقة يقرّها الإسلام

2) حقوق الآخر في الإسلام

أ- حرّية المعتقد

ب- الحق في الحياة

II) الجانب التّطبيقي وفيه:

1) السّلوك الحضاري في القرآن والسّنة والتّراث

2) مشاركة الآخر في الحياة العامّة للمسلمين

3) سلوك أهل الكتاب مع المسلمين

III) إشكاليّة أهل الذّمة:

1) طرح الإشكال بين الإسلام والآخر

2) العداء للإسلام يحرّك إشكال أهل الذمّة

VI – النتائج

I- الجانب النّظري:

1) الاختلاف حقيقة يقرّها الإسلام:

إنّ تنوّع الحضارات والثّقافات، واختلاف الهويّات من أساسيات المجتمعات الإنسانية، ويعكس الثّراء والتّراث العظيمين، وليس هناك تسلسل هرمي بين الثّقافات إذ ساهم كلّ منها في تطوّر البشرية، والحقيقة أنّ تاريخ الحضارات هو تاريخ الاستعارة المتبادلة والتّلاقح، وليس تاريخ تحضير القويّ للضّعيف تعلّة المستعمرين ومغتصبي ثروات الشّعوب.

وبناء عليه، فإنّ العلاقة مع المختلف حتميّة، وفي مركز قضايا المجتمع[1] .

والإسلام لا ينكر هذا الاختلاف، بل يلحّ عليه في أكثر من آية اخترت منها :

﴿يا أيّها النّاس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند اللّه أتقاكم﴾(الحجرات 49 :13).

وجاءت عبارة **﴿يا أيّها النّاس﴾** عامّة تشمل المؤمن وغير المؤمن، اليهودي والمسيحي والمسلم، فكلّهم إخوة في الإنسانيّة.

﴿فالنّاس بنو آدم وخلق اللّه آدم من تراب﴾[2]

---

1) تحالف الحضارات، تقرير المجموعة رفيعة المستوى، 13 نوفمبر/ تشرين الثاني 2006.

وقسّمت الآية ﴿**وجعلناكم شعوبا وقبائل**﴾ النّاس إلى شعوب وقبائل ذات خصوصيات وميزات، يقوم عليها التّوزيع للإنسانيّة ولا يقوم على الاختلاف الدّيني فقط، والأساس هو التّعايش وليس التّناحر والتّصادم، ومن آليات التّعايش "لتعارفوا"، ويقتضي التّعارف أنّ الأسرة لا تعزلنا عن المجتمع وأنّ المجتمع لا يعزلنا عن المجتمعات الأخرى. وهكذا يكون الاختلاف بين النّاس سببا لتراحمهم وتواصلهم، وداعية إلى قيام وحدة إنسانيّة في كيان المجتمع الإنساني الممثّلة في الشّعوب والأمم[3].

والغاية من التّعارف توسيع دائرة العلاقات الإنسانيّة في إطار راق بين البشر وفقا لهذا الحديث النّبوي:

﴿**تعلّموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم**﴾[4]، وهكذا ندرك أنّ من أبرز مقاصد الشّرع من قوله تعالى:"لتعارفوا" اختلاط المسلمين بغيرهم، والتّحاور معهم، والتّعايش في سلم وأمان بما أنّ النّاس خلقوا من نفس واحدة، وخالقهم ربّ واحد بدلالة هذه الآية: ﴿**يا أيّها النّاس اتّقوا ربّكم الّذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالا كثيرا ونساء واتّقوا اللّه الّذي تساءلون به والأرحام إنّ اللّه كان عليكم رقيبا**﴾ (النّساء 4:1).

وتأكّد هذا المفهوم في السّنة النّبوية في حديث رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم: ﴿**أيّها النّاس، إنّ ربّكم واحد، وإنّ أباكم واحد، كلّكم لآدم وآدم من تراب، إنّ أكرمكم عند اللّه أتقاكم، ليس لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربيّ، ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمر فضل إلاّ بالتّقوى ألا هل بلّغت، اللّهمّ فاشهد، ألا ليبلّغ الشّاهد منكم الغائب**﴾ [5]

---

2) التّرمذي، السّنن، تفسير سورة 49، باب 5، وكتاب "المناقب، باب 73.

3) الخطيب عبد الكريم، التفسير القرآني للقرآن،ج26، ص 432.

4) الترمذي، السنن، كتاب "البر" باب 49،ج4،ص3510،ط إحياء التّراث، بيروت

5) البخاري، الجامع الصّحيح، كتاب العلم، باب 9+10+37.

وبما أنّ النّاس كلّهم من أصل واحد فلكلّ الحق في الكرامة والعيش دون تمييز على أساس الدّين أو اللّون أو العرق حسب هذه الآية: ﴿**ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطّيبات وفضّلناهم على كثير ممّن خلقنا تفضيلا**﴾(الإسراء،17: 70)[6].

2) حقوق الآخر في الإسلام:

بما أنّ النّاس خلقوا ليتعارفوا، وبما أنّهم من أصل واحد، كرّمهم الخالق جميعا، فإن لهم حقوقا داخل المجتمع الإسلامي لا ينكرها إلا الدّغمائي، أو المعاند، والجاهل. ومن أبرز تلك الحقوق:

أ- المعتقد

حرّية العقيدة: من المبادئ المقرّرة في الإسلام عدم الإكراه مهما كانت الأسباب أو الظّروف، بدلالة هذه الآية : ﴿**لا إكراه في الدّين قد تبيّن الرّشد من الغيّ**﴾ (البقرة 256:2)، وسبب نزول الآية أنّ رجلا من الأنصار أراد أن يكره ولديه المسيحيّين على اعتناق الإسلام، فأبى القرآن ذلك وترك لهما حرّية الاختيار. ويؤكّد القرآن على حرّية المعتقد في أكثر من آية منها:

- ﴿**وقل الحقّ من ربّكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**﴾ (الكهف 18 :29)

- ﴿**فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ**﴾ (الشّورى 48:42)

6) بوسنينة، المنجي : التّنوّع والاختلاف الفكري، صدر في :الإسلام والسّلم، نشر وزارة الشّؤون الدّينيّة التونسية ومنظّمة المؤتمر الإسلامي ، الأمانة العامّة ، تونس 2003، ص 88-

- ﴿**نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبّار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد**﴾ (ق50 : 45).

ومن ثمّ يحقّ لغير المسلم الّذي يعيش في مجتمعات إسلاميّة أن يتمسّك بعقيدته، ويمارس شعائره، دون إجبار من المسلمين على ترك دينه، وفي المقابل يحقّ للمسلم أن يخالط المجتمعات الغربيّة وأن يحافظ على عقيدته أيضا دون الدّعوة على أسلمة المجتمع الغربي قهرا.

وتقتضي حرّية التديّن أن لا يفرض على أيّ إنسان اعتناق دين معيّن، ولا أن يقهر على ترك دينه، حتّى وإن كان ذلك الدّين ، الدّين الرّسميّ للدّولة. وأنّه من حقّ المخالف أن يحتكم لعقيدته ولقوانينه، والنّهي عن الإكراه يشمل الجميع حتّى اللاّدينيّ، بدلالة قوله تعالى: ﴿**وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتّى يسمع كلام اللّه ثمّ أبلغه مأمنه ذلك بأنّهم قوم لا يعلمون**﴾ (التوبة 9: 6)، ومن حقّ اللاّدينيّ طلب الوقت الّذي يسمح له بالنّظر في القرآن فإن آمن فله ذلك وإن بقي على دينه فلا سلطان لأحد عليه، ولا سبيل لأحد أن يناله بضرر أو أذى فهو الآن في ذمّة المسلمين وعليهم أن يكفلوا له الأمان والطمأنينة ما دام بينهم، وإن رغب أن يلحق بأهله أجيب إلى هذا، ووكّل به من المسلمين من يقوم على حراسته وسلامته حتّى يبلغ مأمنه أي المكان الّذي يجد فيه الأمن بين أهله وعشيرته[7]، وأجمع أهل العلم على أنّ أهل الذّمة من اليهود والنّصارى إن سألوا الإقرار على دينهم، فإن الإمام يقرّهم على دينهم،[8] ولقول ابن كثير :"لا تكرهوا أحدا على الدّخول في دين الإسلام فإنّه بيّن واضح جليّ دلائله وبراهينه لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدّخول فيه بل من هداه اللّه للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بيّنة ومن أعمى

7) الخطيب عبد الكريم، تفسير القرآن للقرآن ج20، ص 705، دار الفكر العربي (د.ت).

8) كريمة أحمد محمود اعتزال تلك الفرق، ص 54، الدّار الهندسية للفقهاء 2006/1427.

اللّه قلبه وختم على سمعه وبصره فإنّه لا يفيده الدّخول في الدّين مكرها مقسورا[9]، ويمكن عرض الإسلام على الغير دون إرهاب أو تشنّج لقوله تعالى ﴿**اُدع إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالّتي هي أحسن**﴾ (النحل 125:16).

والأفضل أن يكون عرض الدّين عن طريق السّلوك الحسن والتّصرّف الرّفيع [10].

ب- الحق في الحياة:

من مقاصد الشّريعة خمسة : حفظ الدّين، وحفظ النّفس، وحفظ العقل، وحفظ النّسل، وحفظ المال، ولهذا حرّمت الشّريعة الإسلاميّة الاعتداء على الإنسان مسلما كان أو غير مسلم، والتّحريم يشمل الاعتداء على النّفس وكلّ أنواع الاعتداء: القتل، الجرح، والتحرّش الجنسي، والسّرقة، والغصب، وإتلاف الأموال[11]، ونقف عند حقّ الحياة لأنّه في طليعة الحقوق الّتي يستحقّها الإنسان من حيث هو إنسان بغضّ النّظر عن دينه أو جنسه أو لونه أو لغته أو مركزه الاجتماعيّ أو الجغرافيّ أو السّياسيّ، لأنّ الحياة هبة اللّه للإنسان ولا يملك أحد انتزاعها منه حسب قوله تعالى: ﴿**أنّه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنّما قتل النّاس جميعا، ومن أحياها فكأنّما أحيى النّاس جميعا**﴾ (المائدة 32:5).

9) ابن كثير عماد الدّين أبو الفداء اسماعيل، تفسير القرآن العظيم، ج14 ص 360، ط. دار الفكر ، بيروت 1402هـ/ 1982م.

10) كريمة أحمد محمود، اعتزال تلك الفرق، ص54، الدّار الهندسية القاهرة 1427هـ/2006م.

11) اعتزال تلك الفرق، ص 62.

وشدّد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم في الوصيّة بأهل الأديان الأخرى وحرّم أذيّتهم وقتلهم في أكثر من حديث منها :

- **﴿من آذى ذمّيا فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة﴾** [12]

- **﴿من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنّة وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما﴾**[13].

أمّا من أقدم على قتل معاهد، فإنّه ينال عقوبة القصاص في الإسلام، أتي برجل من المسلمين قتل رجلا من أهل الكتاب فقامت عليه البيئة فأمر عليّ بقتله، فجاء أخوه فقال : إنّي عفوت، فقال له عليّ:"لعلّهم هدّدوك، قال: لا ولكن قتله لا يردّ عليّ أخي وعوّضوا لي ورضيت، قال:

"أنت أعلم، من كانت له ذمّتنا فذمّته كذمّتنا وديّته كديّتنا"، ولا يقف حقّ المختلف عند الحفاظ على حياته ولكن يفرض الإسلام الحفاظ على عرضه وماله وإن كان خمرا نقل عن القرافي "أن عقد الذّمة يوجب حقوقا علينا لهم لأنّهم في جوارنا وفي خفارتنا وذمّتنا وذمّة اللّه تعالى ورسوله ودين الإسلام، فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة في عرض أحدهم أو أي نوع من أنواع الأذيّة أو أعان على ذلك فقد ضيع ذمّة اللّه وذمّة رسوله وذمّة الإسلام"[14]،ولذلك نجد في الفقه الإسلامي حرمة الاعتداء على أعراضهم وأموالهم ولو كانت هي الخمر، مع أنّ الخمر في

12) السّيوطي، جلال الدّين ، الجامع الصغير في شرح أحاديث البشير النّذير، ج2 ص 547. ط. دار الفكر بيروت (د.ت).

13) صحيح البخاري، كتاب شركة، باب 11، جزية ، باب 14.

14) ابي العبّاس الصّنهاجي، شهاب الدّين المشهور بالقرافي، أنوار البروق في أنوار الفروق، ص 14، ط، دار المعرفة ، بيروت (د.ت).

الإسلام إذا كانت مملوكا لمسلم وتعدّى عليه أحد لا تعوّض للمسلم عنه، ومثله الخنزير لأنّه ليس بمال مقوّم في الإسلام، لكنّه عند أهل الكتاب مال ولا يجوز للمسلم أن يعتدي عليه، وإن اعتدى عليه اعتبر سارقا ووجبت عليه عقوبة السّرقـــة [15].

وهكذا من خان الأمانة عوقب لقوله صلّى اللّه عليه وسلّم:"من أمن رجلا على ذمّة فقتله فأنا بريء من القاتل وإن كان المقتول كافرا"[16]، وعقوبة قتل غير المسلم هي القتل في الإسلام.

وذكر عن عمر بن الخطاب، أنّه لمّا بلغه أنّ بعض المجاهدين قال لمحارب ابن الفرس:"لا تخف، ثم قتله، فكتب عمر إلى قائد الجيش:"إنّه بلغني أن رجالا منكم يطلبون المحارب حتّى إذا اشتدّ في الجبل وامتنع يقول له: لاتخف، فإذا أدركه قتله، وإنّي والّذي نفسي بيده لا يبلغني أن أحدا فعل ذلك إلا قطعت عنقه"[17].

وقد تواترت النّصوص في القرآن والسنّة وسيرة الصّحابة والتّابعين وإجماع الفقهاء العقلاء على استنكار ظلم الذّمي واعتباره أشدّ، من ظلم المسلم ويكفي أن ننظر في صحيفة المدينة، وكتاب النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم لأهل نجران، وكتاب الخليفة أبي بكر رضي اللّه عنه لأهل الحيرة بالعراق، وكتاب أبي عبيدة بن الجرّاح لأهل سوريا[18]، والقاعدة المعلومة من الدّين بالضّرورة في التّعامل مع غير المسلمين هي البرّ والعدل معهم، والوفاء بالعهد لهم، وجواز الاستعانة بهم والتزام الأدب في التّحاور

---

15) اعتزلوا تلك الفرق، ص 53.

16) ابن حنبل، أحمد ، المسند ج5، ص 233+224+437

17) السيوطي، جامع أحاديث للجامع الصغير وزوائده، ج6، ص 121

18) عبد الحيدري آباد محمد حميد اللّه ، مجموعة الوثائق السياسية في العهد النّبوي، ص 1-7 + 305 – 325 ط. مكتبة مدبولي القاهرة، 2000

التّحاور معهم وحسن التّصرّف، ومعاملتهم بالمثل، فمن التزم السّلم والسّلام فله ذلك ومن بادر بالاعتداء فعليه العدوان. وهكذا يرسي الإسلام مبادئ مهمّة مع غير المسلمين من أهمّها التّسامح والمحافظة على الحقوق وتأمين العيش الكريم لكلّ من يخالف المسلمين، بدلالة هذه الآية:﴿**لا ينهاكم اللّه عن الّذين لم يقاتلوكم في الدّين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم إنّ اللّه يحبّ المقسطين إنّما ينهاكم اللّه عن الّذين قاتلوكم في الدّين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولّوهم ومن يتولّهم فأولئك هم الظالمون**﴾(الممتحنة:60: 8-9).

وقد استثنى القرآن قوما من المشركين غير مضمرين العداوة للمسلمين وكان دينهم شديد المنافرة مع دين الإسلام... فأخرجت الآية من حكم النّهي القوم الّذين لم يقاتلوا في الدّين ولم يخرجوا المسلمين من ديارهم، فهؤلاء أمر الإسلام ببرّهم، والبرّ حسن المعاملة والإكرام، وأن يقسطوا في معاملتهم أي أن يعاملوهم بمثل ما يعاملونهم به من التقرّب، فإنّ معاملة أحد بمثل ما عامل به من العدل.

وجملة "إن اللّه يحبّ المقسطين" تذييل، يحبّ كلّ مقسط فيدخل الّذين يقسطون للّذين خالفوهم في الدّين إذا كانوا مع المخالفة محسنين معاملتهم[19]، وسنتوسّع في شرحها بعد حين.

ويدعم الآية الحديث التّالي:"من ظلم معاهدا أو انتقصه من حقّه أو كلّفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة"[20].

19) ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، ج28، ط. الدّار التونسية للنشر 1984، ص 151- 152

20) أبو داود، السنن كتاب إمارة باب 33

رأينا في الجزء الأوّل من البحث الجانب النّظري من إقرار الإسلام بحق الاختلاف وصيانته لحقّ المختلف في المجتمع الإسلامي.

هل وافق النّظري التطبيق؟

II-التطبيق:

1) السّلوك الحضاري في القرآن والسنة والأثر:

يبدأ السّلوك الحضاري مع الآخر من القرآن الكريم الّذي وضع خطوطا كبرى للتّعامل بين المسلم وغيره.

•حسن المعاملة:

نقرأ مرّة أخرى هذه الآية:

﴿لا ينهاكم اللّه عن الّذين لم يقاتلوكم في الدّين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم﴾(الممتحنة 60: 8)

والمقصود هنا المخالفين للمسلمين في الدّين من كلّ الملل والنّحل والأديان، فهم مطالبون ببرّهم ومطالبون بصلتهم والعدل فيهم وروى عن عبد اللّه بن الزّبير عن أبيه قال: "نزلت في أسماء بنت أبي بكر رضي اللّه عنهما، وكانت لها أمّ في الجاهلية يقال لها:"قتيلة بنت عبد العزى، فأتتها بهدايا، فقالت: لا أقبل لك هديّة، ولا تدخلي عليّ حتّى يأذن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فأنزل اللّه: **﴿لا ينهاكم اللّه عن الّذين لم يقاتلوكم في الدّين﴾**[21] .

21) الطّبري محمد بن جرير ، جامع البيان في تفسير القرآن،ج28 ص 43، ط. الأميرية جولاق، ط1 سنة 1328م.

تعرض الآية على المسلم أن يصل غير المسلم ويحسن إليه إذا كان يقيم معه في نفس البلاد.

- **المعاملات:**

وأباح الإسلام مشاركة أهل الكتاب في الطّعام، والمصاهرة فقال تعالى: ﴿**وطعام الّذين أوتوا الكتاب حلّ لكم وطعامكم حلّ لهم والمحصّنات من المؤمنات والمحصنات من الّذين أوتوا الكتاب من قبلكم**﴾ (المائدة5:5)[22]

والمصاهرة تعني قرابة بين أسرتين، وتقارب بين ديانتين.

إضافة إلى دعوة القرآن إلى مجادلة أهل الكتاب بالحكمة والموعظة الحسنة﴿**اُدع إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسن وجادلهم بالّتي هي أحسن**﴾ (النحل16:125) وحقّ غير المسلمين في الوجود مضمون في القرآن بتصريح هذه الآيات ﴿**إنّ الّذين آمنوا والّذين هادوا والنّصارى والصائبين من آمن باللّه واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربّهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾(البقرة2:62).

﴿**إنّا أنزلنا التّوراة فيها هدى ونور يحكم بها النّبيّون الّذين أسلموا للّذين هادوا والرّبانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب اللّه وكانوا عليه شهداء**﴾ (المائدة 5:44).

﴿**وليحكم أهل الإنجيل بما انزل اللّه فيه**﴾ (المائدة:5:47).

---

22) أبو الوليد محمد ابن أحمد بن محمد بن تومرت بن رشد القرطبي، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ج1، ص 450، ج2 ص 43، ط2 دار المعرفة بيروت ، لبنان 1406هـ/1986م

﴿لكلّ جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء اللّه لجعلكم أمّة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى اللّه مرجعكم جميعا فينبّؤكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ (المائدة48:5).

﴿فإن كنت في شكّ ممّا أنزلنا إليك فاسأل الّذين يقرأون الكتاب من قبلك﴾ (يونس 94:10).

واتّفق الفقهاء على تكفير من نفى الكتب السّماوية المتواترة أو جحدها[23].

أمّا موقف السّنة من الآخر، فيظهر في:

سلوك النّبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم مع المخالف،

لقد حاور أهل الكتاب بالّتي هي أحسن، والتزم أسلوب اللّين والمودّة والرّحمة لأنّه اتّصف بالرّصانة والهدوء بشهادة زيد بن سعنة اليهودي قال: "لم يبق شيء من علامات النّبوّة إلاّ قد عرفتها في وجه محمّد حين نظرت إليه إلاّ اثنتين لم أخبرهما منه : يسبق حلمه جهله ولا يزيده شدّة الجهل عليه إلاّ حلما. قال: فكنت أنطلق له لأن أخالطه، فأعرف حلمه من جهله، فذكر قصّة إسلافه للنّبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم مالا في ثمرة، قال: فلمّا حلّ الأجل أتيته فأخذت بمجامع قميصه وردائه وهو في جنازة ومع أصحابه، ونظرت إليه بوجه غليظ، وقلت : يا محمّد ألا تقضيني حقّي؟ فهو واللّه ما علمتكم بني عبد المطّلب لمطل قال : فنظر إليّ عمر وعيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير، ثم قال: يا عدوّ اللّه، أتقول لرسول اللّه ما أسمع، وتفعل ما أرى؟ فواللّه الّذي بعثه بالحقّ لولا ما أحاذر فوته لضربت بسيفي رأسك، ورسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ينظر إلى عمر

23) المشهور منها صحف إبراهيم والتّوراة والإنجيل والزّبور والقرآن.-

في سكون وتؤدة وتبسّم ثم قال : أنا وهو كنّا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر، أن تأمرني بحسن الآداء وتأمره بحسن التباعة، اذهب يا عمر فاقضه حقّه وزد عشرين صاعا من تمر[24]

ومن السّلوك الرّاقي مع الآخر ما روي عن جابر رضي اللّه عنه قال: مرّت بنا جنازة فقام لها النّبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم وقمنا فقلنا : يا رسول اللّه إنّها جنازة يهوديّ، فقال: أليست نفسا بشريّة، وفي رواية قال لهم: إذا رأيتم الجنازة فقوموا[25]، أي لا تسألوا عن جنسية صاحبها.

وثبت من الرّوايات أنّ الرّسول كان يزور اليهود والنّصارى ويكرّمهم ويحسن إليهم، ويعود المرضى منهم[26]، وأكبر دليل على ذلك أن وفد نجران من النّصارى قدموا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بالمدينة فدخلوا المسجد بعد العصر، فحلّ وقت صلاتهم ، فقاموا يصلون في المسجد، فأراد النّاس منعهم، فقال الرّسول "دعوهم" فاستقبلوا المشرق، فصلّوا صلاتهم.

ونفهم من هذا أنّه يجوز دخول أهل الكتاب مساجد المسلمين والصّلاة فيها بحضرة المسلمين على أن لا يصبح ذلك عادة لهم على حدّ عبارة ابن القيّم[27]

---

24) ابن كثير، أبو الفداء، البداية والنّهاية ج2 ص 507 تحقيق عبد اللّه التركي.

25) البخاري، الجامع الصّحيح، جنائز باب 48.

26) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح وصحيح البخاري، كتاب الجنائز باب 79، ج3 ص 219، ط. دار المعرفة بيروت (د.ت)

27) ابن قيّم الجوزية شمس الدّين أبي عبد اللّه محمد بن أبي بكر الزرعي الدّمشقي، زاد المعاد في هدى خير العباد، ج3 ص 638، مؤسسة الرّسالة ومكتبة المنار الإسلامية، الطبعة 16، سنة 1408هـ/1988م.

ومن الأثر الإسلامي في السّلوك الحضاري مع الآخر وتعامل الرّسول مع غير المسلمين من المشركين ومن أهل الكتاب خرج به وصاحبه دليلهما عبد اللّه بن الأرقط وهو مشرك،والحكمة من هذا السّلوك أنّ الشّرك أو الكفر أو المخالفة في الدّين لا يلزم منها أن لا يوثق بصاحبها في شيء ، وليس هناك أخطر من مصاحبة الدّليل في الطّريق للرّسول وصاحبه، وخاصّة طريق الهجرة من مكّة إلى المدينة، وقد رصدت قريش مائة ناقة مكافأة لمن يأتي بمحمّد حيّا أو ميّتا[28].

كما استعان الرّسول بأسرى بدر المشركين في تعليم الأسير منهم عشرة من المسلمين مقابل فكّ أسره، ولم يخش أن يؤثروا عليهم فيخرجوهم من دينهم.

واستعار منهم الأسلحة ورهن عندهم الدّروع واقترض منهم الأموال، وشرّكهم في حروبه وأسهم لهم، وخرج معه صفوان بن أميّة في غزوة حنين وهو مشرك.

ومن سلوك الصّحابة الكرام رضي اللّه عنهم جميعا

اخترت عمر بن الخطاب في مواقفه الرّائدة مع الآخر وأذكر له موقفين:

أ- وجد عمر شيخا يهوديا يتسوّل، فسأله عن ذلك، فأجابه أن الحاجة والشيخوخة ألجأته إلى هذا، فأخذه من يده وذهب به إلى خازن بيت مال المسلمين، وأمره أن يفرض له ولأمثاله من بيت المال ما يكفيهم ويصلح شأنهم وقال عمر :"ما أنصفناه إذ أخذنا منه الجزية شابا، ثم نخذله عند الهرم"[29].

---

28) ابن هشام،السيرة النبوية، ج2، ص 486-488، تراث ط. دار الكنوز الأدبية (د.ت) ، والبداية والنهاية لابن كثير ج3، ص 166-167.

29) الإمام أبو يوسف، الخراج، ص 126.

ب- عمر يقتصّ للقبطي من المسلم، حين ضرب ابن عمرو بن العاص ابن القبطي بالسّوط لأنّه غلبه في السّباق، وقال له :أنا ابن الأكرمين. فذهب القبطي إلى عمر الخليفة وشكا إليه، فما كان من عمر إلاّ أن أمر بحضور والي مصر وابنه إلى مكّة في موسم الحجّ، وفي جمع كبير من النّاس أعطى عمر الدّرة للقبطي وأمره أن يقتصّ من ابن الأكرمين فلمّا انتهى من ضربه التفت إليه عمر وقال له: أدرها على صلعة عمرو فإنّما ضربك بسلطانه، فقال القبطي: إنّما ضربت من ضربني ثم التفت إلى عمرو وقال كلمته الشهيرة "يا عمرو متى استعبدتم النّاس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا".

ومن الممارسة الإنسانية ما جاء في كتاب خالد بن الوليد لأهل الحيرة: "جعلت لهم -أي أهل الكتاب- أيّما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو غنيا فافتقر وصار أهل دينه يتصدّقون عليه طرحت جزيته، وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ما أقام بدار الهجرة:[30].

وممّا يذكر التّاريخ أنّ العقلاء من بعد الصّحابة ساروا على نهجهم واكتفي بموقف ابن تيميّة، لقد قال لقائد التتار لمّا ذهب يطلب منه فكّ الأسرى، فأجابه بأنّه سيفك أسرى المسلمين فقط :"لا نرضى إلاّ بافتكاك جميع الأسارى من اليهود والنّصارى ، فهم أهل ذمّتنا ولا ندع أسيرا من أهل الذّمة ولا من أهل الملّة.

مشاركة الآخر في الحياة العامّة:

لقد شارك أهل الكتاب في الحياة العامة في المجتمعات الإسلامية في كلّ المستويات رغم حدوث تجاوزات، وإشكالات ومظالم تعود إلى طبيعة النّظام السياسي القائم في بعض الفترات، والقرآن بريء منها كلّها، ولا يحاسب دين بأكمله بأخطاء بعض أفراده.

30) العوا، سليم الأقباط والإسلام ص 37-38.

وفعلا ليس هذا من مسؤولية الإسلام، لأنّ في بدايته تحقّقت المساواة بين الأجناس إلى درجة تتجاوز السّلوك الحسن والعلاقات الاجتماعيّة لتنصيب اليهود والنّصارى في أعلى المناصب، وفوّض لهم الخلفاء كثيرا من الأعمال الأساسيّة في الدّولة وخاصّة في الدّولة العباسيّة وكان التّسامح الدّيني الّذي يعدّ سمة واضحة في هذه الدّولة وخصوصا في عصرها الأوّل عاملا مهمّا في بروز آل يختيشوع وغيرهم من علماء اليهود والنّصارى، فمنهم من تولّى رئاسة الأطبّاء في بغداد مثل يختيشوع وابنه جبريل، ولم يجبرهم الخلفاء العبّاسيّون على اعتناق الإسلام وذكرت المصادر التّاريخيّة قصّة رائعة ذات دلالات عميقة، وهي أنّ أبا جعفر المنصور قام بزيارة طبيبه جوريجوس أثناء مرضه في بغداد عام 152هـ/769م وقال له :"يا حكيم اتّق اللّه وأسلم وأنا أضمن لك الجنّة"، فقال جريجيس:"قد رضيت حيث آبائي في الجنّة أو في النّار" فضحك المنصور من قوله، وهذا يعكس قدرا كبيرا من السّماحة.

وقد وضع هارون الرّشيد جميع المدارس تحت مراقبة حنّا بن مأسويه، وفوّض الإشراف الإداري في المدارس تارة إلى اليهود وتارة أخرى إلى المسيحيّين. فزحف العرب بجيش من أطبّائهم اليهود ومؤدّبي أولادهم من النّصارى ففتحوا مملكة العلم والفلسفة ما أتوا على حدوده بأيسر ممّا أتوا على حدود مملكة الرّومانيّين.

ومن العلماء الّذين كانت لهم حضوة في بلاد الإسلام.

- جيرجيوس بن يختيشوع، طبيب المنصور الّذي ذكرناه سابقا فقد أعلى مراتبه فوق مرتبة الوزراء، وأكرمه غاية الإكرام، ولما مرض أمر الخليفة بحمله إلى دار العامّة وخرج ماشيا يعوده ولمّا طلب جيروجيوس منه أن يدفن مع آبائه وأجداده، أمر بتجهيزه، ومنحه عشرة آلاف دينار وأوصى من معه إذا توفّي في الطّريق أن يؤخذ إلى مدافن أهله كما طلب.

• نوبخت الفلكي وولده أبو سهل، وهما من أصل فارسي ويتّبعان مذهب الفرس، حضيا بمكانة عالية عند المنصور.

• تيويل بن توما النّصراني، من الموارنة، بجّله الخليفة المهدي وهو من أبرز الفلكيين، ومؤرّخ صاحب كتب.

• بختيشوع الطّبيب وابنه يوحنّا بن مأساوية النّصراني ولاّه الرّشيد ترجمة الكتب القديمة، طبيّة وغيرها، وعاش في خلافة الرّشيد ومن بعد المتوكّل.

• يوحنّا البطريق، أقامه المأمون أمينا على ترجمة الكتب من كلّ علم من علوم الطّب والفلسفة.

• حنين بن إسحاق النّصراني ذاع صيته أيام المتوكّل، وكان من أشهر المترجمين لكتب أرسطو وغيره، وعرف بفصاحة العبارة وحسن الترجمة.

• متّى بن يونس المنطقي النصراني، تفنّن في جمع العلوم العقلية أخذ عنه أبو نصر الفارابي وانتهت إليه الرّئاسة في بغداد.

• سهل بن سابور، وسابور ابنه نصرانيان، وتولّى سهل بمارستان جند ياسابور.

• أيام ازدهار الحضارة العربية الإسلامية

لم يكن ينظر إلى البلد الّذي ينسب له العالم وإلى الملّة الّتي يتبعها، أوالدّين الّذي يدين به وإنّما ينظر إلى مكانته العلمية لأن أهل العلم في الحضارة المتقدّمة يعتبرون صفوة اللّه من خلقه ونخبته من عباده، لأنّهم صرفوا عنايتهم إلى نيل فضائل النّفس، وارتفعوا بقواتهم عن دنس الطبيعة، هم ضياء العالم وهم واضعوا قوانينه، ولولا هم لغرق العالم في

الجهل والبربرية[31]، فكان العلم والكفاءة هما الميزان الوحيد الّذي يوزن به الفرد ليتبوّأ مكانة علمية.

ولا يقتصر الاندماج على الأطبّاء وغيرهم من العلماء وإنّما خالط اليهود والنّصارى المسلمين في المجال التّجاري والاجتماعيّ والثّقافيّ، لأنّ اليهود النّصارى انتشروا في بلاد الإسلام وناهز عدد اليهود فقط ثلاثمائة ألف حسب ما ذكر بنيامين أحد الرّحالة اليهود الّذين رحلوا سنة 1165هـ/1560م، ووجدوا على ضفاف نهر دجلة والفرات، وفي الموصل، وعكبرة وواسط، وفي بغداد والحلّة والكوفة والبصرة، وفي كثير من بلاد فارس، في همذان وإصفهان وشيراز، وفي غزنة وسمرقند، وأغلب الماليين في الشّام يهود وأغلب أطبّاء القصور في بغداد نصارى، واشتهر اليهود باحترافهم حرفا خاصّة كالصّيرفة ودباغة الجلود والصّيّاغة، وحذقهم لهذه الصنّاعة حتّى حازوا ثقة النّاس فيهم. ولو لم يجدوا الاحترام، والمحبّة لما انتشروا هذا الانتشار، وتعايشوا مع المسلمين، وخالط بعضهم بعضا، واتّخذ بعضهم بعضا أصدقاء قال الجاحظ: أنشدنا أبو صالح مسعود بن قنديل الفزارى في أصدقاء له من اليهود:

وجدنا من اليهود رجال صدق ... على ما كان من دين مريب

لعمرك أنّني وابني غريض ... لمثل الماء خالطه حليب

خليلان اكتسبتهما وإنّي ... لخلّة ما جد أبدا كسوب

31) آل يختيشوع النساطرة في البلاد العبّسي"عالم الفكر، العدد 4، المجلّد 29، أفريل – ماي 2001،.عادل زيتون، ص 133 159.

وقال أبو الطمحان الآسدي في أصدقاء له نصارى:

وإنّي وإن كانوا نصارى أحبّهم ويرتاح قلبي نحوهم ويتوق

ويقول أبو نواس:

سألت أخي أبا عيسى وجبريل له عقل

فقلت الرّاح تعجبني فقال كثيرها قتل[32]

وشهد المؤرّخ أدام ميتز بهذا فقال:

"من الأمور الّتي تعجب لها كثرة عدد العمّال (الولاة وكبار الموظّفين) والمتصرّفين غير المسلمين في الدّولة الإسلامية فكان النّصارى هم الّذين يحكمون المسلمين في بلاد الإسلام والشكوى من تحكيم أهل الذّمة في أشعار المسلمين شكوى قديمة[33] في هذا المعنى يقول أحد الشّعراء في يهود عصره وسيطرتهم على حكّامه

يهود هذا الزّمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملكوا

المجد فيهم والمال عندهم ومنهم المستشار والملك

يا أهل مصر إنّي نصحت لكم تهوّدوا قد تهود الفلك[34]

32) أمين أحمد ، ضحى الإسلام، ص 326، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة 10، (د.ت).

33) آدم ميتز، الحضارة الإسلامية في القرن الرّابع الهجري، ج1 ص 55-84

34) السّيوطي جلال الدّين ، حسن المحاضرة، ص 117، والحضارة الإسلامية، ج1 ص 117.

2) سلوك أهل الكتاب مع المسلمين:

منذ نشأته تعامل الإسلام مع المسيحيّة معاملة الودّ والمحبّة، وكانت المسيحيّة هي الحليف الاستراتيجي مع الإسلام وأذكر مثالا فقط من الفترة النّبوية:

لمّا اشتدّ أذى القريشيّين بالمسلمين الأقلّية بمكّة أمرهم الرّسول محمّد صلّى اللّه عليه وسلّم بالهجرة إلى الحبشة قائلا لهم:"لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتّى يجعل اللّه لكم فرجا ممّا أنتم فيه، فهاجر عدد كبير من المسلمين إلى الحبشة، واغتاظت قريش، وأرسلت وفدا بالهدايا إلى النّجاشي وحاشيته وطلبوا منهم طرد هؤلاء المسلمين قائلا للملك: لقد لجأ إليكم غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، فنريد أن تطردهم من بلادك.

ولكن النّجاشي لم يلبّ طلبهم إلاّ بعد أن يسمع المسلمين، وأرسل في طلبهم، وسألهم عن هذا الدّين فتولّى جعفر بن أبي طالب الرّد على تلك الأسئلة.

وممّا قاله جعفر:

"أيّها الملك كنّا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ويأكل القويّ منّا الضّعيف فكنّا على ذلك حتّى بعث اللّه إلينا رسولا منّا نعرف حسبه ونسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فأمرنا بعبادة اللّه تعالى وحده، ونهانا عن عبادة الأصنام، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة وصلة الرّحم وحسن الجوار فصدّقنا واتبعنا فعدا علينا قومنا فعذّبونا وظلمونا فخرجنا إلى بلادك ورغبنا في جوارك"

فقال النّجاشي:"هل معك يا جعفر شيء ممّا جاء به عن اللّه هذا النّبيّ، فقال له جعفر:

- نعم، فقال له النّجاشي

- "فاقرأ عليّ".

فقرأ عليه جعفر آيات من سورة مريم، فبكى النّجاشي حتى ابتلّت لحيته ثمّ قال:

- إنّ هذا الّذي أسمعه من جعفر، والّذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، ثم قال لرسل قريش:

- انطلقوا فواللّه لا أسلم المسلمين إليكم.

وردّ عليهم هداياهم، وجاور المسلمون المسيحيّين في الحبشة معزّزين مكرّمين[35].

وفي السيرة النّبوية نصوص تذكر أنّ المسيحيّة كانت أوّل حام لمحمّد قبل البعثة ومنها قصّة بحيري الرّاهب فبعد أن رأى محمّدا وهو طفل مع عمّه أبي طالب في سفر، فأوصاه وطلب منه أن يرجع به ويحافظ عليه لأنّ عليه علامات النبوّة[36].

وموقف ورقة ابن نوفل ابن عمّ خديجة وهو نصراني لما ذكرت له خديجة مقولة الرّاهب فقال ورقة: لئن كان هذا حقّا يا خديجة أنّ محمّدا لنبيّ هذه الأمّة، وقد عرفت أنّه كائن لهذه الأمّة نبيّ ينتظر هذا زمانه[37].

---

35) ابن هشام، السيرة ج1، ص 322 وما بعدها، تحقيق محي الدّين عبد الحميد، والبداية والنهاية، لابن كثير، ج3 ، ص 64-65، دار الكتب العلمية، بيروت (د.ت).

36) نفس المصدر، ج1، ص 182، ط.تراث الإسلام.

37) نفس المصدر، ج1، ص 191، والبداية والنهاية لابن كثير، ج3، ص 286.

وتشجيعه للرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم لماّ جاءه الوحي لأوّل مرّة حين جاءته خديجة وأخبرته بما رأى الرّسول فقال ورقة : قدّوس، قدّوس، والّذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه النّاموس الأكبر الّذي كان يأتي موسى، وأنّه لنبي هذه الأمّة فقولي له، فليثبت.... ولمّا لقيه يطوف بالكعبة قال له: يا ابن أخي أخبرني بما رأيت وسمعت، فأخبره رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فقال له ورقة: والّذي نفسي بيده إنّك لنبي هذه الأمّة، ولقد جاءك النّاموس الأكبر الّذي جاء موسى....[38]

ولمّا أراد أهل مكّة أن يتأكّدوا من صدق نبوّة محمّد أرسلوا النّظر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود يسألونهم عن علامات صدق النّبوّة لأنّهم أهل التّوراة. فقال لهم أحبار اليهود سلوه عن ثلاث نأمركم بهنّ فإن أخبركم بهنّ فهو نبيّ[39]. ولم يجحدوا إمكانية النّبوّة في العرب.

قصّة عدّاس النّصراني مع الرّسول صلّى اللّه وسلّم:

سعى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم إلى ثقيف يطلب النّصرة منهم ولكنّهم أغروا سفاءهم وعبيدهم به يسبونه ويصيحون به ويرمونه بالحجارة حتّى دميت قدماه الكريمتين، وجلس في ظلّ حبلة من عنب فلمّا رآه ابنا ربيعة، عتبة وشيبة آلمهما ما لقي محمّد صلّى اللّه عليه وسلّم فدعوا غلاما لهما نصرانيا اسمه عدّاس، فقالا له: خذ قطعا من هذا العنب فضعه في هذا الطّبق ثم اذهب إلى ذلك الرّجل، فقل له يأكل منه ففعل عدّاس، ثم أقبل حتّى وضعه بين يدي الرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم ثم قال له كل، فلمّا وضع رسول اللّه فيه يده، قال : باسم اللّه، ثم أكل فنظر

38) نفس المصدر ، ج1، ص238.

39) ابن هشام، السيرة، ج1، ص 301.

عدّاسا في وجهه، ثم قال: واللّه إنّ هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له الرّسول من أهل أي البلاد أنت يا عدّاس، وما دينك، قال نصراني، أنا رجل من ننوي. فقال رسول اللّه من قرية الرّجل الصالح يونس بن متى فقال له عدّاس ، وما يدريك ما يونس بن متّى؟ فقال عليه الصّلاة والسّلام: ذاك أخي كان نبيّا وأنا نبيّ، فأكب عدّاس على رسول اللّه يقبل رأسه ويديه وقدميه[40].

أمثلة واقعية حيّة تساعد على التحاور ضمن السّلوك:

هذه نماذج من السّلوك الحضاري بين المسلمين وأهل الكتاب قديما، ممّا يؤكّد إمكانية مواصلة التّعامل بين أهل الأديان والوقوف ضدّ كلّ الدّعوات الرّامية إلى التّصادم، ونشر الفتنة، والتحريض على الحروب، ومن أخطر الدّعوات مسألة أهل الذّمة الّتي أصبحت ذريعة عند البعض لإشعال فتيل التّصادم والتّنافر بين الشّعوب وبين الأديان وتشتم منها رائحة اقتصوا لأجدادكم من أبنائهم.

III - إشكالية أهل الذّمّة :

أ/ طرح الإشكال بين الإسلام والآخر:

كنت ألمعت إلى حقوق أهل الذّمّة في بداية البحث تحت عنصر حرّية المعتقد وحقّ الحياة ولكنّي مضطرّة للعودة إلى هذا الموضوع بأكثر تفصيل عند المسلمين.

كلمة"أهل الذّمّة" لا تعني تمييزا ضدّهم وإنّما تعني أنّ الحقوق الّتي أعطاها الإسلام جاءت بمقتضى ذمّة اللّه وذمّة محمّد رسول اللّه

40) نفس المصدر، ج1 ص 420.

والمسلمين. وقد أعطى الرّسول الذّمّة كما أعطاها خلفاؤه من بعده وأمراء الجيوش الإسلامية، وبمقتضى ذلك أعطى الإسلام اليهود والمسيحيّين الحقّ في الوجود جنبا إلى جنب مع المسلمين، ويمكن أن نشبّهها بكلمة الرّاعي والرّعية.[41]

وفعلا كانت هذه المسألة ولا تزال موضع نقاش كبير، واغتنم هذه الفرصة لأعطي بعض التّوضيحات، رغم أنّها عبارة عن عموميات لا تكفي لمعرفة ملابساتها ولا دقائقها وجزئياتها، ولكنّها على الأقلّ ستكون منطلقا لمن أراد التّوسّع في المسألة بدقّة أكثر وموضوعية أعقل.

• المشهور في الفكر الإسلامي أنّ "الذّمّة" يراد بها الضّمان والعهد والأمان، ليعيش أهل الكتاب بين المسلمين في طمأنينة لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، وقد شبّهها البعض "بالجنسية" في عصرنا اليوم، فالحاصل على جنسيّة أجنبيّة يتمتّع بحقوق المواطنة في البلد الّذي أسند له تلك الجنسيّة، فالذّمي إذا هو حامل الجنسيّة في البلد المسلم.

ويتضمّن عقد الذّمة إقرارا مؤبّدا يضمن لأهله حرّية المعتقد والتعبّد في بيعهم وكنائسهم، واتّباع أحكام دينهم في معاملاتهم وقضاياهم.

ولهم حماية المسلمين ورعايتهم مقابل دفع قسط من المال سمّي "بالجزية" قديما، وهو نوع من الحقوق المتبادلة، ومن يرفض حماية المسلمين له لا يدفع تلك الجزية.

وقد تواترت الآيات القرآنية والأحاديث النّبويّة في تحريم ظلمهم، والتّشهير بمن يعتدي على أحد منهم. إضافة إلى توصيات الصّحابة

---

41) حديث "كلّكم راع وكلّكم مسؤول عن رعيته" أي حافظ مؤتمن: والرّعية كلّ من شمله الرّاعي (انظر لسان العرب لابن منظور، طبعة دار المعارف بمصر، المجلّد3 ، ص 164).

والخلفاء الرّاشدين ومواقفهم الّتي ذكرنا بعضا منها سابقا. وكلّها تضمن حقّهم في حماية أرواحهم وأبدانهم وأموالهم وأعراضهم، وكفالة المحتاجين منهم وكفالة عيالهم وإسقاط الجزية عنهم.

وشرّع الإسلام جواز التّزوّج بالكتابيات مع بقائهنّ على عقائدهنّ، وأحلّ للمسلمين طعامهم، وأباح التوارث فيما بينهم، وأجاز شهادتهم على المسلمين. ومن حقّهم أن يتولّوا مناصب الدّولة كما رأينا سابقا ويذكر الماوردي في "الأحكام السّلطانية" أنه يمكن تقليد الذّمي "وزارة التّنفيذ" وهي مرتبة عليا بواسطتها يبلغ وزير التّنفيذ أوامر الإمام وينفّذها، ويمضي ما يصدر عنه من أحكام[42].

ويحوي التّاريخ الإسلامي أحداثا كثيرة تثبت التزام المسلمين بعهدهم إزاء أهل الذّمة.

ويؤكّد جور قرم أنّ قاعدة عدم أهليّة الذّميين لشغل الوظيفة العامّة لم تجد أحدا يتقيّد بها، حيث يتعذّر عمليّا أن نجد عهدا خلت فيه إدارة الحاضرة الإسلامية من الذّميّين. وجدول الوظائف الّتي يشغلها غير المسلمين واسع للغاية أصلا، خلافا لما كانت عليه الحال في الحاضرة المسيحيّة بالنسبة لليهود الّذين سدت في وجوههم جميع الوظائف خلا الجباية"[43] ومنها الأمثلة التي ذكرتها سابقا.

ويرى الباحثون الموضوعيّون أنّ السّمات المميّزة في الإسلام هي توفير الأمان لأهل الذّمّة وقد حالت القوانين دون تعرّضهم للأذى أثناء الحروب وأثناء الاضطرابات والصّراعات الّتي كانت تنشب بين الفرق الإسلاميّة أحيانا.

---

42) الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي ، الأحكام السلطانية والولاية الدينيّة، ص 31، دار الكتب العلمية، بيروت (د.ت)

43) قرم ، جورج ، تعدّد الأديان وأنظمة الحكم ص 254، ط2، بيروت 1992.

ب/ العداء للإسلام يحرّك إشكال أهل الذّمة:

ولكن هناك من الباحثين اليوم من خصص وقته للبحث في مسالة "أهل الذّمة" في الإسلام قديما من منطلق العداء للإسلام ولأهله مثل الباحثة Gislle Littman المعروفة بهذا الإسم Bat yé or، وهي مؤرّخة بريطانية من أصل يهودي تتهجّم في كتابها " Face au danger intégriste, "Juifs et Chretiens sous l'Islam"[44]

وتذكر أنّ أهل الذّمة اضطهدوا، وعاشوا أسوأ الوضعيات في حياتهم في البلاد الإسلاميّة حيث مورس عليهم التّمييز العنصري والحرمان، وتعرّضوا إلى الإهانات، يرتدون ثيابا تمييزية وحكم عليهم بالمشي السّريع وعدم رفع الأعين أمام المسلمين وما إلى ذلك ممّا يشعل نار الحقد والبغضاء بين أهل الدّيانتين، لأنّها تبنّت قراءة انتقائية لابن حزم في كتابه مراتب الإجماع[45] .

وقد تكفّل بالرّد عليها الكاتب الفرنسي من أصل جزائري

Malęk Chebel صاحب "Dictionnaire amoureux de l'Islam" و "Manifeste pour un Islam des lumières" مبرزا أنّ أغلبية المؤرّخين اليهود المختصّين في التّاريخ الإسلامي ومنهم:

*Ignace Goldziher
* Georges Vajda
* Samuel Munk
* Bernard Lewis
*Maxim Rodinson

---

44) نشر سنة 2005 BERG International Editeurs (300p)

45) ابن حزم أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد، مراتب الإجماع، ص 115-116، دار الكتب العلمية، بيروت (د.ت).

كلّهم ذكروا أنّ علاقة اليهود بالمسلمين طيلة التّاريخ لم تكن عرضة للاضطهاد والاحتقار والإهانة والتّمييز، والعزل وأنّ منهم من تولّى مناصب عليا في بلاد الإسلام لم يتولّها في أيّ حضارة وفعلا إذا رجعنا إلى عديد الكتابات الفقهية نجدها تذكر حقوقا كبيرة لأهل الذّمة.

وقد حدثت بعض التّجاوزات لا ينكرها التّاريخ ولكنّها لا يمكن أن تطفو على السّطح وتخفي الإيجابيات بشهادة "Bernard lewis" المعروف بنقده الشّديد للإسلام، حيث ذكر في كتابه "Les Juifs en terre d'Islam"اليهود في أرض الإسلام "أنّ هناك صورتين للإسلام تلخّصانه دائما.

الأولى: تمثّل فارسا يحمل سيفا بيده، وبالأخرى كتاب القرآن، وهو يخبر ضحاياه بين اختيار السّيف أو الكتاب. أما الصّورة الثّانية، فهي الّتي تقدّم الحياة في المجتمع الإسلامي كعالم مثالي حيث تتعايش فيه كلّ الأعراق والجنسيّات والدّيانات في انسجام تامّ، والحقيقة أنّ الإسلام لا هذا ولا ذاك... صحيح أنّ الإسلام في بدايته قد سوّى بين النّاس لأنّه دين العدالة، وإذا نحن قارنّا العالم الإسلامي هذا بالعصر الأروبي الوسيط في أروبا أو الهند أو الصّين، نجده دين العدالة والتفتّح والتّسامح، حتّى ولو كانت الطّبيعة البشريّة قد مارست العنصريّة وعدم التّسامح ولكن هذا ليس من مسؤوليّة الإسلام"[46] ولكنّه من مسؤولية الفقهاء والمشرّعين المسلمين الّذين وضعوا مجموعة أحكام واجتهادات جرى تطبيقها بين التّشدّد واللّين تبعا للحاكم المنصف أو المتشدّد ومن أمثلة ذلك أنّ الخليفة العبّاسي المتوكّل ألزم أهل الذّمّة بحمل علامات مميّزة على ثيابهم (في إيران مثلا كان يتوجّب على المسيحيّين أن يتمنطقوا أو يتزنّروا بحزام جلدي معيّن. أمّا اليهود، فكان يتوجّب عليهم أن يعلّقوا رقعتين مميّزتين واحدة على الصّدر وأخرى على الظّهر)، ولم يكن يسمح لهم بركوب الخيل الأصيلة

46) برنار لويس، اليهود في أرض الإسلام، ص 71-72.

وإنّما يمتطون ظهور البغال فقط وعندما يلتقي ذمّي مع مسلم، فإنّه يتوجّب عليه الترجّل عن راحلته وإفساح الطّريق للمسلم ونتيجة لذلك انعزل المسيحيّون واليهود في تجمّعات طائفية مستقلّة وهي أمثلة قليلة لا يمكن أن يتسرّع الباحث الموضوعي عبرها للحكم على حضارة كاملة أو على المسلمين والعرب كلّهم والتنبيه من خطرهم على المسيحيين وعلى أروبا بأكملها. والعداء للإسلام والمسلمين باد للعيان هنا لأنّ الأمر الّذي ذكرناه ضدّ أهل الذّمّة لم يكن يوضع موضع التّنفيذ إلاّ لفترات وجيزة، كلّما هبّت ريح تشدّد في الدّين أو تولّى الحكم خليفة متزمّت مع العلم أنّ الحاكم المتزمّت يصيب آذاه أهل الذّمة والمسلمين[46]. وفي هذا المضمار يقول الدّكتور جورج قرم نقلا عن أنطوان فتال :"بعد موت الحاكم بأمر اللّه نعم الذّميون لسنوات عديدة بالطمأنينة والرّغد، وكان يصدر بين الحين والحين أمر بوجوب العودة إلى حمل سمات مميّزة، لكنّه كان يبقى حبرا على ورق".

ويصف المقريزي حياة النّصارى في آخر أطوار الخلافة الفاطمية فيشير إلى أنّهم كانوا يرتدون أفخر[47] الثّياب ويركبون بغالا وخيولا مسرجة ببذخ كبير، ويمتلكون عبيدا من الجنسين[48]

ويرى جورج قرم أن أفضل دراسة في مسألة الطّوائف في الحاضرة الإسلاميّة هي دراسة المستشرق الأنقليزي "أرنولد" عن نشر العقيدة الإسلاميّة وقال فيها :"...بالرّغم من أنّ صفحات التّاريخ محبرة

---

46) برنار لويس، اليهود في أرض الإسلام، ص 71-72

47) جورج قرم، تعدّد الأديان وأنظمة الحكم، ص 252-253

48) المقريزي، تقي الدّين أبي العباس أحمد بن علي كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج1، ص 347-360، ط مكتبة المثنى (د.ب) بغداد، والحضارة الإسلامية في القرن الرّابع للهجرة ج1، ص 81.

بدم عدد من الاضطهادات... فمن الحقّ أن نقول إنّ غير المسلمين نعموا بوجه الإجمال في ظلّ الحكم الإسلامي بدرجة من التّسامح لا نجد معادلا لها في أروبا قبل الأزمنة الحديثة" [49].

وهكذا كانت مسألة أهل الذّمة مجالا للنّقاش بين الشدّ والذّب[50]، ولا تزال مسألة العنصرية وكره العرب والمسلمين قضية قائمة الذّات في فكر وممارسة عدد لا يستهان به من أهل الغرب وهي من أكبر دواعي انتشار الإرهاب والإرهاب المضادّ.

وأخيرا رأينا قصّة أيان هرسي على الصومالية التي كانت عضو برلمان في كندا في كتابها "الكافرة"l'infidèle في أمريكا وشدّة عدائها للإسلام فاحتضنها المحافظون الجدد في أمريكا.

وهذه نماذج لا تبحث عن الصّدام وبأيدينا الحدّ من هذا الصّدام إذ أعدنا النّظر فيما سأطرحه في النّتائج.

النّتائـــــج

- إنّ الإنسانية اليوم ليست في حاجة إلى من يسكب الزّيت على الفتيل ليذكي نار التّصادم والحقد والكراهية مثل ما فعلت "Bat Yé or"، وأيان علي الهرسي واقتصرت على ذكر السّلبيات في علاقة المسلمين باليهود، كما أنّها ليست في حاجة إلى الفكر الإسلامي الدّغمائي المتطرّف.

---

49) نفس الكتاب، ص 230-239.

50) عالم المعرفة، الإسلام والمسيحية، عدد 215، ص 175 -176، جمادى الآخرة 1417هـ/تشرين 1990م.

- نرفض من هذا المنبر العلمي كلّ أشكال الإرهاب المسلّط على العقول وعلى الأبدان، إرهاب الفكر الدّيني بأنواعه، وإرهاب الفكر السّياسي، وافضح أنواع الإرهاب إرهاب الفكر الاقتصادي وهو مجلبة كلّ أنواع الإرهاب.

- إن البشرية في حاجة إلى كل شخص يرفض التّصادم من أمثال "باول شيجل" رئيس المركز اليهودي في ألمانيا والّذي يضمّ مائة ألف يهودي الّذي يقول :"ليس كلّ ما يحظى بحماية قانونية باعتباره من حرّية التعبير له مبرّرات أخلاقية وقيمية" وأكّد أنّ العنف الّذي اتّسمت به احتجاجات المسلمين على الرّسوم الكاريكاتورية المسيئة للنّبيّ محمد يظهر الفشل الكامل الّذي مني به الحوار بين الأديان. ووجّه انتقادات لاذعة لموقف الغرب من العالم الإسلامي وقال : بدلا من إلقاء المحاضرات الّتي يغلب عليها طابع تلقيني مدرسي حول المبادئ الغربية الخاصّة بحرّية التعبير كان من الأفضل إظهار حساسية أكبر للمشاعر الدّينيّة للمسلمين... وحذّر من مغبّة النّظر للمسلمين جميعا باعتبارهم ضالعين في أعمال العنف الّتي وقعت من قبل أقلية منهم، لأنّ هذا الأمر لن يصب إلاّ في صالح المشدّدين[51].

وبالفعل أصبحنا نسمع من زعماء الفكر المتشدّد من شكر بوش الأب والإبن ويشكر شارون وكل المحافظين لأنّهم ساعدوا في الإسراع في إنجاح مخطّطاتهم، فقال احدهم في قريزيا نحن خطّطنا نجاحنا بعد خمسين سنة(50) وها نحن نفلح في تجمّعنا وخططنا في عشر سنوات فقط ونشكر بوش وأمثاله على ما قدّمه لنا.

---

51) www.doha 4 all.com

- إن التّعايش ممكن بما انّه وقع عبر مراحل التّاريخ وهو واقع اليوم وأذكر كمثال مدينة "Marseille" الّتي تجتمع فيها مجموعات دينية متعايشة، يسكنها حوالي 500.000 كاتوليكي، و150.000 مسلم، و80.000 أرميني، و20.000 بروستانت، و70.000 يهودي، و3000 بوذي متعايشين رغم بعض الاختراقات.

وأعجبني سلوك من نصيرة مارني مديرة.

«L'union familiale des familles musulmanes des Bouches- Du- Rhônes»

جعلت عيد الأضحى لسنة 2007 مفتوحا لكلّ سكّان مرسيليا، وشارك فيه اليهود، ولمّا سئل اليهود عن سبب مشاركتهم في عيد المسلمين أجابت السّيدة «Martine Yana s'il s'agit du sacrifice d'Abraham, nous sommes tous concernés)

"إذا القصد بتضحية إبراهيم فنحن كلّنا معنيّون بهذا الأمر"

والآن نطرح هذه الأسئلة:

1) هل المسلمون اليوم مستعدّون حقّا للتّحاور مع الآخر واعتبار دينهم دينا بين الأديان الموجودة وأنّ الحلّ الوحيد للقضاء على الإرهاب هو التّحاور والتّعايش؟ وأن لا يقبر الحوار بعد انخفاض المجالس.

2) هل هم مستعدّون للتّخلّي عن مثل هذا الشّعار الأحاديّ المبثوث في كتبهم أمثال هذه القولة:"إنّ دين الإسلام هو الدّين الّذي لا دين للّه بعده ابدا وأنّ من خالفه ممّن بلّغه كافر مخلد في النّار أبدا"؟[52]، وأن الأديان الأخرى محرضة فهذا لا يعنينا، ولا يخدم الحوار، أنا مسلم فما يهمّني في دين آخر محرّف أو غير محرّف.

52) ابن حزم أبي محمد علي بن أحمد سعيد، مراتب الإجماع، ص 167 + 173، ط. دار الكتب العلمية، بيروت (د.ت).

3) هل هم مستعدّون لنقد تراثهم والاعتذار عنه ومن أمثلته "واتّفقوا على أنّه إن أعطى- الذّمي – كلّ ما ذكرنا عن نفسه وحدها فقيرا كان أو غنيّا أو معتقا أو حرّا أربعة مثاقيل ذهبا في انقضاء كلّ عام قمري، بعد أن يكون صرف كلّ دينار اثني عشر درهما كيلا فصاعدا على أن يلتزموا على أنفسهم أن لا يحدثوا شيئا في مواضع كنائسهم وسكناهم ولا غيرها ولا بيعة ولا ديرا ولا صومعة ولا يجدّدوا ما خرب منهما ولا يحيوا ما اندثر وأن لا يمنعوا من مرّ بهم من المسلمين النّزول في كنائسهم من ليل أو نهار وأن يوسّعوا أبوابها للمارّة وأن يضيّفوا من مرّ بهم من المسلمين للثّالث وأن لا يؤووا جاسوسا ولا يكتموا غشّا للمسلمين؟

ولا يعلّموا أولادهم القرآن ولا يمنعوا من أراد الدّخول في الإسلام من أهلهم وأن يوقّروا المسلمين وأن يقوموا لهم وأن لا يتشبّهوا بهم في شيء من لباسهم لا قلنسوّة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ولا يتكلّموا بكلامهم ولا يكتبوا بكتابتهم ولا يركبوا على السّروج ولا يتقلّدوا شيئا من السّلاح ولا يحملوه مع أنفسهم ولا يتّخذوه ولا ينقشوا في حوانيتهم بالعربيّة ولا يبيعوا الخمور وأن يجزّوا مقادم رؤوسهم، وأن يشدّوا الزّنانير على أوساطهم وأن لا يظهروا الصليب على كنائسهم ولا في شيء من طرق المسلمين ولا يجاوروا المسلمين بموتاهم ولا يرفعوا أصواتهم بالقراءات لشيء من كتبهم بحضرة المسلمين، ولا مع موتاهم ولا يخرجوا شعانين ولا صليبا ظاهرا ولا يظهروا النّيران في شيء من طرق المسلمين ولا يتّخذوا من الرّقيق ما جرت عليه سهام المسلمين"[53]

وهل المسيحيون مستعدّون حقّا للاعتراف من على كنائسهم وبيعهم أنّ الإسلام دين سماويّ موحى من عند اللّه وهو في نفس مرتبة قداسة الكتاب المقدّس عندهم.

53) نفس الكتاب السابق ، ص 115-116، الأحكام السلطانية للماوردي، ص 185.

هل هم مستعدّون للاعتراف اعترافا صادقا وكاملا أن محمد صلّى اللّه عليه وسلّم رسول اللّه إلى العباد ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

هل يقبلون التّصدّي لحملات التّحريف الّتي يتعرّض لها القرآن الكريم اليوم، والتشويه الّذي يدخله الإرهابيّون الفكريّون على هذا النّص المقدّس عند المسلمين بحذف آيات منه؟

هل هم مستعدّون للاعتذار عن الحروب الصّليبيّة الّتي أبادت الآلاف من المسلمين، وعن محاكم التّفتيش؟

هل أهل الكتاب الصّادقون اليوم مستعدّون لإيقاف الحفريّات الّتي إلى تسعى لتهديم المسجد الأقصى نكاية في المسلمين في كلّ أنحاء العالم وإلى إذكاء نار الحرب والكراهية بين النّاس وبالتّالي مزيد اشتعال نيران الحرب؟

هل أهل الكنيسة والبيعة مستعدّون لإيقاف الهجمات العنصرية على رموز الإسلام باسم حرّية التّعبير والأرضية موجود للحدّ منها، ونحن نعلم أنّ 80% من شعب فرنسا يرفض التّهكّم من الآخر شخصا وثقافة؟

هل هم مستعدّون لإعادة قراءة الجمل الدّاعية للحروب في الكتاب المقدّس في التلمود خاصّة ، والّتي تفضّل جنسا على جنس، وتستبيح استعمار أراضي الشّعوب واستغلال ثرواتها؟

يوم نسمع بهذا التغيير حدث عند أهل الأديان وهو ما نسعى إلى سنّه في النّدوات والمؤتمرات والملتقيات وله آثار طيّبة وإن كانت بطيئة، عندها نصدّق أن الحوار ممكن والتعايش أصبح واقعا.

وأختم بما قيل للمؤرّخ والفيلسوف البريطاني "برتداد رسل" :"إنّك تدعو إلى الخير والسّلام بين الشّعوب ولكن دعوتك كثيرا ما تضيع وسط صليل السّيوف فما تعليلك لهذه الظّاهرة؟ لماذا لا ينتصر الخير على الشّر في كثير من الأحيان؟

قال : "الحقيقة لا مفرّ من الاعتراف بها هي أنّ الأشرار يتّحدون ويقفون صفّا واحدا رغم ما في نفوسهم من كراهيّة بعضهم بعضا. أمّا دعاة الخير، فهم موزّعون متفرّقون وهذا هو سبب ضعفهم.

فلنتّحد لينتشر الخير، وتتكلّم الحكمة وتسكت المدافع، ويحكم العقل في النّصوص لا النّصوص في العقل للعمل بمقاصد الشّرائع الصالحة للإنسانية.